عيد هكسلي

ولد توماس هكسلي في ٤ مايو سنة ١٨٢٥ اي منذ مائة سنة فصدرت مجلة نايتشر الآن وهي في مقدمة المجلات العلمية الانكليزية وفيها ٥٦ صفحة كبيرة عن هذا العلامة باقلام ٢٢ عالماً من اكبر علماء الانكليز عدا ما كتبهُ عنهُ قلم التحرير. ولا نظن انهُ توفي ملك او امير او وزير او عالم آخر واحتفل بهِ او نوّه بفضلهِ بعد مائة سنة من ولادتهِ كما احتفل بهكسلي ونوّه بفضلهِ

واكثر ما ذكر في نايتشر متضمن فيما كتبناهُ عنهُ حين وفاتهِ فاعدنا نشرهُ الآن. وفاتنا ان نقول قبلاً ان الرجل الذي زعم خصومهُ انهُ معطل او ملحد طلب ان يكتب على قبرهِ ابيات كانت زوجتهُ قد نظمتها وهي قولها

"Be not afraid, wailing hearts that weep,
For God still giveth his beloved sleep,
And if endless sleep he wills, so best."

اي « لا تجزعي ايتها القلوب الباكية لان الله لا يزال يعطي حبيبهُ نوماً واذا شاء ان يكون هذا النوم ابدياً فرحياً بهِ » وكأنها تقول

ما الموت الاَّ رقدةٌ يجزي الاله بها حبيبهْ
لا تجزعنَّ وان تكن ابديةً من غير أوبه

ولد في الرابع من شهر مايو (ايار) سنة ١٨٢٥ في قرية ايلنغ على مقربة من مدينة لندن وكان ابوهُ مدرساً في مدرسة هناك فقرأ فيها مبادئ العلوم ثم عكف على الدرس والتنقيب وتعلم اللغة الالمانية وغاص في بحار علومها لانها اغنى لغات الارض بالكتب العلمية ودخل مدرسة طبية في مدينة لندن ولم يكتفِ بدرس ما وجدهُ في الكتب وسمعهُ من الاساتذة بل كان يبحث وينقب بنفسهِ ويكتب حينئذٍ رسالة في عملة طبية وصف فيها الطبقة التي في عمق جذر الشعر فسميت هذه الطبقة باسمهِ الى الآن وظهر من ذلك الحين انهُ ميّال الى المباحث المبتكرة التي امتاز بها مدة اشتغالهِ بالعلم

ومارس صناعة الطب مدة وجيزة ثم انضمَّ الى جمهور الاطباء الذين في خدمة الجنود البحرية وذهب في سفينة من سفن الحكومة أُرسلت لمساحة البحار في الاقاصي الجنوبية

فاقلع بها سنة ١٨٤٦ ولم يعد حتى سنة ١٨٥٠ . واقامت السفينة اكثر هذه المدة شرقي جزيرة استراليا وشمالها فاغتنم الفرصة للبحث في الحيوانات البحرية التي رآها هناك وكان يصف ما يراهُ وصفاً علمياً مدققاً ويبعث به الى انكلترا لينشر في مجلاتها العلمية فاشتهر اسمهُ بين رجال العلم وتوسّم فيهِ كثيرون سمات الفضل والذكاء فلما عاد الى البلاد الانكليزية انتُخب عضواً في الجمعية الملكية وأهدي اليهِ نيشان من نياشينها في العام التالي . ثم انتُخب استاذاً لتاريخ الطبيعي وعلم البيتولوجيا في مدرسة المعادن الملكية واستاذاً للفسيولوجيا في دار العلوم الملكية سنة ١٨٥٤ وعُيّن ممتحناً في الفسيولوجيا وتشريح المقابلة في مدرسة لندن الجامعة

وانتظم في كثير من الجمعيات العلمية والتعليمية ورأسها مراراً ولهُ الفضل الكبير في اصلاح شأن التعليم في بلادهِ . واستعفى من مناصبهِ لما صار لهُ من العمر ستون سنة لكي لا يبقى في طريق الاحداث الصاعدين وراء المعالي فكان مدة اشتغالهِ بين رجوعهِ من السفر الاول واعتزالهِ المناصب العمومية ٣٤ سنة قضاها في البحث والانشاء والخطابة ولم يترك فرعاً من فروع علم الحيوان بل علم الحياة حتى وسّعهُ واغناهُ بكشفياتهِ ومبتكراتهِ وحلّ كثيراً من الغوامض في بناء جسم الانسان والحيوان وقُرن اسمهُ باسم دارون وأُوين اشهر علماء الانكليز في هذا العصر بل اشهر علماء الارض في علم الحياة

واعتنق المذهب الدارويني في تحوُّل الانواع واسباب تحوُّلها وكان اقوى انصارهِ واشهر زعمائهِ . قال من فصل كتبهُ في سيرة دارون بعد وفاتهِ ما ترجمتهُ

« اني لم اهتم بمسألة تحوُّل الانواع الاَّ بعد سنة ١٨٥٠ وكنت حينئذٍ قد رفضت ما ذكر في اسفار موسى عن كيفية الخلق مع انهُ كان راسخاً في ذهني بما علمني اياهُ والداي ومعلميَّ ولم يكن رفضهُ سهلاً عليَّ فتعبت فيهِ كثيراً . لكن عقلي كان غير مقيد بقيود تمنعهُ من التسليم بالآراء التي لها سند علمي او فلسفي مهما كانت فلم ارَ في نفسي حينئذٍ ولا ارى فيها الآن ما يمنعني من التسليم بخبر الخلق (على ما جاء في سفر التكوين) ولست ممن يقول ان الخلق كذلك ضرب من المحال ولكنني اقول انهُ يظهر لي بعيداً عن الامكان ولا ارى على صحتهِ دليلاً في انواع الحيوان والنبات الموجودة الآن . وبمثل ذلك كنت حينئذٍ انظر الى مذهب النشوء (مذهب تحوُّل الانواع او مذهب دارون) اي لم اكن ارى ادلَّة على صحتهِ . ثم تعرفت بالمستر هربرت سبنسر وذلك سنة ١٨٥٢ وتصادقنا من ذلك الحين صداقة لم تنفصم عراها يوماً واحداً . وقد بحثنا في هذا الموضوع وتناظرنا فيهِ

مناظرات طويلة عنيفة فكنت لم يقدر معها امتاز به من قوة الحجة ان يصرفني عن مذهب اللاادرية الذي اعتنقته . وكان لي في مذهبي عذران الاول ان الادلة على تحوُّل الانواع لم تكن كافية الى ذلك الحين والثاني ان الاسباب التي فُرضت لتحوُّل الانواع لم يكن شيء منها كافياً لذلك . واني انظر الآن الى الموقف الذي كنت فيه حينئذٍ فلا ارى انهُ كان في وسعي ان اعتقد غير ما كنت اعتقد به حينئذٍ

« ولعلَّ ذلك كان شأن كثيرين من الذين تهمهم مباحث العلية فانهم لم يكونوا يجدون دليلاً على صحة ما جاء في سفر التكوين عن خلق المخلوقات ولا على صحة تحوُّل الانواع بالقوى الطبيعية فتركوا ميدان النظر ودخلوا ميدان العمل يبحثون عن الحقائق التي تثبت هذا المذهب او ذاك . وكأن مقالات دارون وولس التي نُشرت سنة ١٨٥٨ وكتاب دارون الذي نشر سنة ١٨٥٩ كانت مصباحاً رآهُ رجل سائر في ليل بهيم فاهتدى به الى طريق مطروق سواء كان طريق بيته او طريق غيره . وهذا الطريق هو ان الموجودات الحيَّة وجدت انواعها بالقوى التي يمكن ان يثبت فعلها الآن في الطبيعة فليس على المرء ان يعتمد على الآراء والمذاهب النظرية بل انه ينظر الى الحوادث التي يمكن ان تُرى وتُمتحن . فجاءنا كتاب دارون اصل الانواع بالضالة التي كنا ننشدها

« وقبل ان نُشر هذا الكتاب بسنة كنت انا وكثيرون غيري لا ندري كيف نعلل خلق الانواع اذا اغفلنا الخبر الذي ورد عن خلقها في سفر التكوين فلما نُشر الكتاب وطالعناهُ عجبنا من غفلتنا وعدم اهتدائنا الى حل هذه المسألة بنفسنا . ولعل اصحاب كولمبوس لاموا انفسهم مثلنا لما رأوهُ يكسر البيضة و يوقفها على رأسها . فان امر التغيُّر في الانواع ومنازعة البقاء وموافقة الاحوال كل ذلك كان من الامور المعروفة ولكن ما من احد ظن انها الطريق لحل مسألة تولُّد الانواع الى ان اتى دارون وولس و بدَّدا الظلمة ونُشر كتاب اصل الانواع فكان مصباح الهداية » انتهى

ولما اهتدى الى المذهب الداروني اي الى القول بان انواع النبات والحيوان تولَّد بعضها من بعض بالاسباب الطبيعية التي لم تزل تفعل بها وتنوِّعها حتى يومنا هذا اقتنع به حالاً واخذ من ذلك الحين يكتشف الادلة الكثيرة على صحته وينشئ المقالات الضافية في شرحه ولاسيما في ما يتعلق منهُ بالحيوانات الفقرية لكن اكثر مقالاته نُشرت في نشرات الجمعيات العلمية التي قلما يطالعها الجمهور

وامتاز على اكثر العلماء بل على اكثر الكتَّاب والخطباء بشدة المعارضة وسهولة

العبارة ولو كان الموضوع من اعوص المواضيع العلمية فهو كصديقه الاستاذ تندل من هذا القبيل تقرأ خطبهُ العلمية كأنك تقرأ رواية فكاهية في سلاسة عبارتها وحسن سبكها وجلاء معانيها . وكان يخطب على العمال في المواضيع العلمية فتتجلى لهم اسرارها حتى تكاد تلمس بايديهم

وهو اول من اطلق مذهب النشوء على الانسان فقال انهُ حلقة من حلقات الحيوان واقام الادلة على ذلك قبلما نُشر كتاب دارون في اصل الانسان بعشر سنوات . وهو الذي قال بتولد الفرس من حيوان آخر في كل قائمة من قوائمه خمس اصابع وانبأ بوجود آثارهِ قبل ان وجدت فلما وجدت جاءت مؤيدة لقولهِ

وبحث في علاقة الدين بالعلم ولهُ في ذلك مقالات ضافية ومناظرات عنيفة مع غلادستون ودوق ارجيل والدكتور وايس وغيرهم من كبار العلماء وفطاحل رجال الانشاء . واقوالهُ كالسيوف الماضية تقطع حجج الخصم وتصدُّ في وجهه المسالك وهي شديدة الوطأة على غير الذين يذهبون مذهبهُ . وكثيراً ما يزدري خصومهُ ويرشقهم بكلام احدّ من السهام ولاسيما اذا حرَّفوا اقوالهُ او تظاهروا بشيء يحسبهم براءً منهُ ولكنها كثيرة النكات البديعيَّة والمذاهب الكلاميَّة فلا يملُّها القارئ مهما غمض موضوعها . وقد اتفقت الآراء على انهُ بطل الداروينيَّة المحرَّب وعذيقها المرجب وحامي حماها بسيف الحجة والبرهان وبلاغة العبارة وحسن البيان

وقد ادَّعى البعض انهُ معطِّل وهو ليس كذلك لان التعطيل يقتضي نفي الخالق بدليل ومعلوم انهُ لا دليل ولا شبه دليل على نفي الخالق فكيف يصح ان يرشق مثل هكسلي بمثل هذه البدعة وهي ضد كل ما قالهُ وكل ما علَّم بهِ على خط مستقيم وانما مذهبهُ الحقيقي الاقرار بجهلهِ مالا يعلمهُ فالامور التي يعلمها يقول اني اعلمها والامور التي يجهلها يقول اني اجهلها . ومن هذا القبيل حكمهُ على وجود الخالق فانهُ يقول انهُ لا دليل على نفيهِ ولا على وجودهِ وان الادلة التي اقيمت على وجودهِ لا تثبت وجوده والاَّ اثبتت وجود آلهة الهنود وآلهة الصينيين وآلهة المصريين والكلدانيين كما تثبت وجود اله الكنائسيين لأنَّ هذه الادلة كلها من نوع واحد

ولا ندري كيف يسلم عقلهُ بوجود اشياء كثيرة مما يحكم بوجودهِ من آثارهِ فقط كالاثير والنار التي في جوف الارض ولا يسلم بوجود الخالق الازلي الذي منهُ ولهُ وبهِ كل الاشياء . لكنَّ الاعتقاد بالهٍ روحي مجرَّد عن المادَّة والصفات المادية لا

بتطبق على ما يعتقد به كثيرون من الذين ينسبون الى الله الصفات البشرية كالبغض والمكر والانتقام ويقولون ان لهُ يدين ورجلين وعينين ونحو ذلك فسواء عندهم قال انهُ لا يعرف دليلاً على وجوده او انهُ روحي مجرَّد عن المادَّة فهو في الحالين مسطِّل في عرفهم

وكان غرضهُ الاول والاسمى نشر الحقائق العلمية مجرَّدة عن غوائي الاوهام وقد قال في هذا الصدد ما ترجمتهُ

« غرضي الاول ان اسعى بكل جهدي في زيادة المعارف الطبيعية وفي الحث على استعمال اساليب البحث العلمي في كل المسائل التي يهتم بها نوع الانسان بناءً على الاعتقاد الذي نما فيَّ بقوي وقوي بازدياد قوتي وهو انهُ لا راحة للناس مما يلاقونهُ من العناء الاَّ في الصدق قولاً وفعلاً وفي مقابلة العالم كما هو اذ يخلع الانسان الثوب الذي البستهُ اياهُ ابدى تظاهرت بالتقوى لتخفي ما تبطن من الشرور. وعلى هذه النية اخضعتُ كل مطمع في الشهرة العلمية التي كان يمكنني ان اطمع بها لغايات أخرى كتعميم العلوم وترقية التعليم العلمي وللخصومات الكثيرة والمناظرات الطويلة في مذهب التطوُّر ولمعارضة اهل النعرة المذهبية التي هي العدوّ الالدّ للعلم . واني واحد من كثيرين جاهدوا هذا الجهاد وسواء عندي ذُكرتُ بذلك او لم اذكر » انتهى

وكل من قرأ شيئاً من كتاباته او مما اثرناهُ عنهُ في المقتطف يعلم انهُ نال ما سعى لهُ ولم يمت حتى رأى علماء الارض وعظماءها من ملكة الانكليز وابنها ولي العهد الى اصغر عامل في مناجم الفحم يقرُّ بفضله و يعترف لهُ بانهُ افاد العالم ماديًّا وادبيًّا فوائد لا تقدَّر

وقد أُصيب بالنزلة الوافدة في شهر مارس سنة ١٨٩٥ وتبعها اضطراب في رئتيهِ وكليتهِ فتوفي يوم السبت في التاسع والعشرين من شهر يونيو من تلك السنة وخلف زوجةً وثلاثة بنين واربع بنات . ودفن في الرابع من يوليو (تموز) وسار في جنازته كل علماء الانكليز حينئذٍ مثل كلفن وفوستر ولستر وسبنسر ولوكير وروسكو وفرنكلند وغلادستون ونواب الجمعيات العلمية كلها وصلى عليهِ القس لولن دافس واقيم لهُ تذكار في دير وستمنستر وتمثال في متحف التاريخ الطبيعي مع داروين وأوين

ونزيد على ذلك الآن ان العلماء الباحثين في مذهب داروين نوَّعوا فيهِ بعض التنويع ولكن حقيقة المذهب اي تولُّد الانواع بعضها من بعض لم تمس حتى الآن. وهذا لا يمنع ان ينقض المذهب كلهُ يومًا ما اذا ثبت بادلة قاطعة ان الانواع وجدت مستقلة بادئ بدء